أبو ســـــعيد أبو الخير

وشطحات المتصوفة

للدكتور جواد علي

علّق معالي الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق في كتابه القيم « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » على اسم أبي سعيد أبي الخير ، وفي أثناء عرضه لرأي المستشرق « تمان » " guillaume Theophil Tenremann " بهذا التعليق : « لم أجد ذكراً فيما بين يدي من مراجع البحث لأبي سعيد أبي الخير ، لكن يوجد أبو سعيد محمد بن عيسى الخراز نسبة إلى خرز الجلود من القرب ونحوها من أهل بغداد ، وقد ذكره صاحب كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » وقال السيد مصطفى العروسي في حاشيته على شرح الرسالة القشيرية « هو شيخ الطائفة غير أنه توفي على الأرجح سنة ٢٨٠هـ (٨٩٩ م) وذلك يمنع أن يكون هو المراد بواضع علم التصوف قبل القرن الثاني أو في ثناياه »[1].

ثم استمر معاليه قائلا : « على أن الأستاذ ماسنيون ذكر في كتابه « مجموعة نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام » ص ٨٧ أبا سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) وذكر أنه خراساني وأشار إلى أنه كان يتحلل من القيود الدينية وكان ذا صلة بالفيلسوف ابن سينا ، وليس أبو سعيد ابن أبي الخير هذا هو المقصود بالضرورة »[2]

ثم ذكر معاليه بعد هذه الفقرة نصوصاً فيمن يصح أن ينسب إليهم التصوف وفيهم اسم أبي سعيد الخراز البغدادي . وحين تحدث المستشرق عن أبي سعيد تحدث عن تطور التصوف في الإسلام وعن الأفكار الحديثة التي حلت بناديه كفكرة وحدة الوجود ثم ذكر تأثير بعض المتصوفة في التصوف كأبي سعيد أبي الخير في فارس والهند .

وتأثير أبي سعيد في متصوفة فارس تأثير مشهور معروف ولا سيما عند المستشرقين ، وسبب ذلك على ما أرى هو أن هذا التصوف كان في إيران ، وكان يكتب في عصر أخذ الفرس فيه يدونون أفكارهم بلغتهم الوطنية ، وفي عصر ظهرت فيه حكومات إيرانية أخذت تشجع اللغة الفارسية ، فصار صاحبنا يكتب بهذه اللغة بأسلوب سلس جذاب وينظم بها نظماً جديداً على طراز مبتكر فريد[1] ، وفضلا عن ذلك فإنه لم يغادر وطنه على ما هو معروف عنه . ومع ذلك فإن الكتب العربية تحدثت عنه كمتصوف عظيم ونعتته « بشيخ الوقت ومقدم شيوخ الصوفية وأهل المعرفة في وقته »[2]

وأما قول معاليه حكاية عن رأي تمان : « ثم جاء التصوف فعرض لهذا العلم المؤلف من اصطلاحات خاوية وانضم إليه خصوصاً عند فرقة القائلين بوحدة الوجود من أهل التصوف الذي وضعه قبل القرن الثاني أو في ثناياه أبو سعيد أبو الخير ، ولا تزال تلك الفرقة منتشرة في فارس والهند »[3] ففيه التباس على ما أعتقد نتج إما عن خطأ في الأصل وقع فيه المستشرق — وهو حكم لا أستطيع أن أجزم به لعدم وجود كتاب المستشرق لدي في الوقت الحاضر — وإما عن صعوبة في العبارة ووهم في الترجمة أو الإختصار إذ لا يوجد شخص آخر في تاريخ التصوف بهذا الإسم وبهذه الصفات ظهر أثره في فارس واتهم بالتحلل من قيود الدين وبالقول بوحدة الوجود غير هذا الشخص الذي نتحدث عنه الآن والذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة ، لا قبل القرن الثاني أو في ثناياه كما جاء في الكتاب .

---

(١) راجع كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية لمصطفى باشا عبد الرازق ص٦ عن أحمد بن عيسى الخراز . راجع الرسالة القشيرية ص٢٤ والخراز من أهل بغداد صحب ذا النون المصري والتاجي وأبا سعيد اليسري والسري . مات سنة سبع وسبعين ومائتين أو تسع وسبعين ومائتين . راجع الطبقات الكبرى للشعراني ص ٧٨ وما بعد .

(٢) تمهيد ص ٦

(١) راجع عنه The Mystics of Islam, by R.A. Nicholson كذلك Browne Persian Literatur evol I. p, 416. London 19.h رسالة جوزائيه ص ٤٩٣ Zhukovski

(٢) راجع طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي (المطبعة الحسينيه) ج ٤ ص ١٠ كذلك الأنساب للسمعاني (طبعة جب ص ٥٥٠ . أيضا تذكرة الاولياء لفريد الدين عطار ج ٢ ص ٣٢٢ وتذكرة الشعراء تأليف أمير دولتشاه بن علاء الدولة (طبعة Broune) ص ٨٤ و ٥٢١ .

(٣) تمهيد ص ٥ وما بعد .

والمستشرقون من ذوى التخصص فى موضوع التصوف حين يتحدثون عن مشاهير المتصوفة يتحدثون عن أبى سعيد كمثل بارز من أمثلة المتحررين والقائلين بوحدة الوجود . وكتب التصوف الفارسية تعتبره أمة بنفسه فى عالم التصوف ، صاحب مدرسة ورأى . ومن البديهى أن يكون الشخص الذى بحث عنه تمان هو هذا الشخص الذى ذكره سائر المستشرقين وكتاب العرب والفرس[1]

وأبو سعيد بن أبى الخير الذى تحدث عنه هذا المستشرق ، والذى نتحدث عنه الآن ، هو شخصية مشهورة جداً ؛ وقد بحث عنه المستشرق المعروف إتى (Ethé) فى رسالته التى وضعها فى عام ١٨٧٨ للميلاد ، والمستشرق الروسى زوكوفسكى (Zhukowski) ناشر كتاب « أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد »[2] ثم المستشرق الثقة فى موضوع التصوف الإسلامى الإنكليزى « نيكلسون »[3] ، والمستشرق (إدوارد براون) فى كتابه القيم «تاريخ الأدب الفارسى»[4]. وهو أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير ولد فى غرة المحرم من عام ٣٥٧ للهجرة (٧ دسمبر ٩٦٧ م) فى ميهنه وهى مدينة من إقليم خابران بخراسان[5] وتوفى فى ٤ شعبان من عام ٤٤٠ للهجرة (١٢ يناير من عام ١٠٤٩ للميلاد)[6]، وكان أبوه عطاراً ، ولكنه كان فناناً موهوباً محبوباً من السلطان محمود الغزنوى ملك غزنة .

يقول فريد الدين عطار : رسم أبو الخير والد أبى سعيد على جدران بيته صورة بديعة للسلطان محمود الغزنوى وهو فى وسط معركة حامية الوطيس تحف به فيلته وجنوده على طريقة الهنود فى المعارك ، فلما أبصر ابنه أبو سعيد هذه الصورة وهو طفل يافع نقش على جدران البيت أسماء الله الحسنى فلم يترك مكاناً إلا كتب عليه اسم الله العظيم . فلما رأى ذلك والده استعض كثيراً ووبخه على عمله الذى سبب تسويد الجدران وتشويه منظرها . فما كان من الطفل إلا أن أجاب : « نقشت ياوالدى على الجدار اسم سلطانك ، ونقشت أنا اسم سلطانى »

فخجل الوالد من هذا الجواب وأمر بإزالة معالم ما رسمه هو على الجدار[1] .

درس أبو سعيد ، على طريقة ذلك الوقت ، النحو والفقه والتفسير والحديث والشعر وعلم الطريقة ، وحفظ من شعر العرب وحده ثلاثين ألف بيت[2] ناهيك بشعر العجم . ولما توسم أبوه فيه الخير أخذه إلى أكبر شيخ فى بلده وهو الشيخ أبو القاسم الكركانى من كبار المتصوفة وأصحاب الطرق ليتبرك به ولينال على يديه العلم والفوز والسعادة[3].

كانت الأحوال السياسية والإجتماعية فى هذا العصر سيئة جداً : أمراء يتذابحون على جيف الدنيا ، وسلاطين يتقاتلون على ملك زائل لن يدوم ، ومشايخ يتحاسدون على نعمة لا تساوى شيئاً ، وانحطاط فى الخلق إلى أقصى حد ، ونقص فى المثل الإسلامية العليا ، وشذوذ فى الطبع غريب ، وتكالب على المادة . فرأى الناس أن المخرج الوحيد للخروج من هذا المأزق هو محاربة المادة عن طريق التصوف ، ومجاهدة الدنيا عن طريق الزهد . فنفقت سوق التصوفة وراجت بضاعتها . ويجب ألا ننسى بأننا فى بلد فيه استعداد لهذا المبدأ قديم ، والهند وهى عش من أعشاش التصوف تجاوره وقد أمدته وغذته بهذه المادة منذ العصور التى سبقت الإسلام .

وكانت العادة أن يتنقل طالب العلم فى ذلك الوقت من مكان إلى مكان طلباً للعلم وبحثاً عن شيخ شهير . وفى ذات يوم وبينما كان الغلام يغادر المدرسة إلى البيت إذا بأحد الفضوليين من المارة يسأله عما درس وعن الكتاب الذى درس فيه ، وأخيراً عن «ماهية الحقيقة» ولما لم يكن أبو سعيد يعرف شيئاً عن ماهية الحقيقة تشوش واضطرب ، فأجيب : « حقيقة العلم ما كشف عن السرائر »[4] فأثار هذا الجواب فى نفسه شوقاً عظيماً إلى معرفة الحقيقة

(١) راجع طبقات السبكى ج ٤ ص ١٠ ؛ الانساب للسمعانى (طبعة جب) ص ٥٥٠ . كتاب لب الالباب ص ٢١٠ طبعة Petrus vettr (أمستردام) . رسالة حورائيه طبعة Zhukovski ص ٤٩٣ . تذكرة الشعراء (طبعة براون) وتذكرة الاولياء .

(٢) طبع فى بطرسبرك سنة ١٨٩٩ .

(٣) راجع كتابه الشهير Nicholson. The Mystics of Islam London, 1914 Nicholson, Stuaies in Islamic Mysticism Cambridge 1921 1—76

(٤) Broune persian Literature p. 2

(٥) راجع لب الالباب ص ٢١٠ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مجلد ١ ص ٣٥٢ . والانساب ص ٥٥٠ . وطبقات السبكى ج ٤ ص ١٠ .

(١) راجع تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) راجع تذكرة الاولياء ص ٣٢٤ .

ولم يزل يبحث عنها حتى وجدها فى أروقة الزهاد والمتصوفين .

اتصل وهو بمرو بالفقيه الشافعى أبى عبد الله الحصرى ، ثم تحول إلى أبى القفال ، والظاهر أن دراسة الفقه لم تجد فى نفسه هوى ومكانة فانتقل إلى «سرخس» وهنالك اتصل بصوفى مجذوب هو لقمان السرخسى ، وقد أرشده هذا الصوفى إلى صوفى آخر هو « أبو الفضل حسن » تلميذ أبى نصر السراج على طريقة الجنيد البغدادى المتوفى عام ٢٩٧ للهجرة وعام ٩٠٩ للميلاد[١] .

أتقن أبو سعيد مبادئ التصوف واجتاز الامتحانات النفسية الشاقة ونال « الخرقة من أبى عبد الرحمن السلمى النسابورى (المتوفى عام ٤١٢ للهجرة) وأصبح درويشاً من الدراويش من أهل المسلك والذوق وقطباً من أقطاب التصوف فى منطقة خراسان[٢] . والتصوف فى نظر أبى سعيد أبى الخير هو « طرح النفس فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية والنظر إلى الله بالكلية »[٣]

وبعد سياحة فى البرارى والقفار على طريقة الفقراء دامت سبع سنوات لم يبال خلالها بحر أو برد عاد أبو سعيد إلى مخالطة الناس ومجالستهم ، ونال خرقة ثانية من أبى العباس القصاب بمدينة « آمل » إلى أن حل أخيراً بنيسابور[٤] .

بلغ أبو سعيد منزلة عالية جداً فى التصوف ، والتف حوله جم غفير من المريدين رأوا فى سيرته سيرة الرجل الزاهد الصالح الذى وصل إلى مرتبة الوجد والفناء[٥] . فكانوا يتبركون به ويتهالكون عليه . والسعيد منهم من حصل على قطرة ماء من ماء وضوئه ليتبرك بها . حكى أنه سقطت منه قطعة من قشر البطيخ «الرق» فتهالك أصحابه عليها واشتراها أحدهم بعشرين ديناراً[١] .

وأبو سعيد كسائر كبار المتصوفة من أصحاب الحس المرهف والخيال ، فنان موهوب بطبعه ، حلو الحديث ، سلس العبارة . كان على رأى أكثر المتصوفة الفرس فى مذهب الحلول ووحدة الوجود بل كان من متطرفى أصحاب هذا المذهب فى هذه العقيدة . وقد سما خياله فى هذا الباب حتى على خيال بايزيد البسطامى (المتوفى عام ٢٦١ للهجرة) والحلاج . وقد تحلل فى كثير من أقواله من القيود المألوفة ، لم يجد فى ذلك حرج ولا غضاضة . والأنبياء وعددهم (١٢٤) ألف نبى كلهم فى الدرجة سواء جاءوا لتحقيق شىء واحد هو « معرفة الله » ولكن متى تمت هذه المعرفة عرف الإنسان كل شىء وسقط عنه كل شىء وتساوى لديه كل شىء[٢] .

والشريعة هى ظاهر المعرفة ، لذلك فهى لا توصل إلى المعرفة لأنها ظاهر الحق جاءت لمن لا يعرف الحق ولم يؤت العلم الصحيح . والسبيل الوحيد الذى يسلك بنا إلى المعرفة هو مسلك (الطريقة) . وذلك لا يتم طبعاً إلا بعد جهد جهيد يصل الإنسان فى نهايته إلى إدراك (الحقيقة) ثم إلى (النهاية) التى هى فوق (الحقيقة) وهى (المعرفة) التى لا يمكن إدراكها إلا بعد إدراك (علم اليقين)[٣] .

ومتى خصص الإنسان كل قواه وحصر كل حواسه فى الوجود الحقيقى بحيث اتصل به اتصالا كلياً أدرك عندئذ (عين اليقين) . ومتى وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من المعرفة اتصل اتصالا مباشراً (بالمعرفة) التى تشع بنورها على القلوب وتتجلى عندئذ أسرار النبوات وحقائق الكتب المنزلة فلا حاجة إلى نبوة أو وسيط « لأنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسل »[٤] وحيث أن القليل من الناس من يصل إلى هذه المرتبة احتاج الناس إلى الأنبياء والرسطاء ليكونوا سفراء بين الحق والناس[٥] .

البقية فى العدد القادم

الدكتور جواد على

(١) عطار ج ٢ ص ٣٢٤ .

(٢) عطار ج ٢ ص ٣٢٦ وهو صوفى شهير وقد اشتهر بتفسير القرآن على طريقة الصوفية وله فيه كتاب شهير هو كتاب (حقائق التفسير) ويذمه الذهبى فى تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ راجع أيضا Journal Asia 1912, 584 .

(٣) راجع طبقات السبكى ج ٤ ص ١٠ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١ ص ٣٥٣ فريد الدين العطار ج ٢ ص ٣٢٧ وما بعد .

(٥) الوجد هو بشارات الحق بالترقى إلى مقامات مشاهداته . راجع كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٢ (طبعة اربرى) . والفناء عدم رؤية العبد لفعله بقيام الله على ذلك . راجع اصطلاحات الصوفية الواردة فى الفتوحات المكية ص ١٧٩ . التعرف ص ٩٢ الجرجانى ص ١١٣ .

(١) دائرة المعارف مجلد ١ ص ٣٥٢ . عطار ج ٢ ص ٣٢٧

(٢) راجع عطار ج ٢ ص ٣٢٤ . عن المعرفة راجع التعرف ص ١٠١ . المعرفة إذا وردت على السر ضاق السر عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها .

(٣) راجع مصطلحات الصوفية ودرجاتهم .

(٤) راجع رسائل ابن تيمية الرسالة الأولى ص ٢٠

(٥) تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٧٧ .